

تصدعات الهوية واختلالات الذاكرة في رواية ليل الأصول لنور الدين سعدي

Identity Rifts and Memory Disorders in Nourredine Saadi's Novel, The Night of Origins

* امباركة مسعودي

EMBARKA Messaoudi

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف (الجزائر)

Chadli Bendjedid El Tarf University (Algerie)

em.messaoudi@univ-eltarf.dz

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/10/24

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

شكل موضوع الذاكرة والهوية مدار اهتمام حقول معرفية متعددة، وخاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث أكدت هذه الدراسات على صلة الترابط والتشابك بينهما، فكثيرا ما كانت الذاكرة أساسا لبناء هوية صلبة، كما أن الهوية تقوم على الذاكرة عبر فهم الذات والوعي بتغيرات الحاضر والماضي، يهدف هذا البحث إلى مقارنة تمثلات الهوية والذاكرة في رواية "ليل الأصول" (La nuit des origines) للروائي الجزائري نور الدين سعدي، ويسعى إلى الكشف عن آليات الروائي في دراسة صراعات الهوية والذاكرة في الرواية، وي طرح جملة من التساؤلات هي: كيف عبرت رواية ليل الأصول عن صراعات الهوية واختلالات الذاكرة الفردية والجماعية لأبطالها؟ هل افتتح هذا النص الروائي على مفهومي الهجنة والفضاء الثالث في تمثله لموضوع الهوية؟ وتوصل البحث إلى مجموعة من الاستنتاجات كان من أهمها أن الذاكرة الجماعية ظلت تحمل جراح الاستعمار والعنف وساهمت في بلورة الهوية الفردية، كما كشفت تمثلات الهوية والذاكرة في رواية ليل الأصول عن هويات متصدعة عانت من الاعتراق والتهميش في المنفى.

الكلمات المفتاح: هوية؛ ذاكرة؛ هجنة؛ تمثلات؛ رواية جزائرية؛ ليل الأصول.

Abstract :

The topic of memory and identity has been the focus of interest in various fields of knowledge, especially in the humanities and social sciences. These studies have emphasized the interconnectedness and interdependence between them. Memory has often been the basis for building a solid identity, and identity is built on memory through understanding the self and awareness of changes in the present and the past. This research aims to approach representations of identity and memory in the novel "La

* امباركة مسعودي: em.messaoudi@univ-eltarf.dz

nuit des origines" (*Night of Origins*) by the Algerian novelist *Noureddine Saadi*. It seeks to uncover the novelist's mechanisms in studying the conflicts of identity and memory in the novel, and poses a number of questions: How did the novel "La Nuit des Origines" express the identity conflicts and the imbalances in the individual and collective memory of its protagonists? Did this novel open up to the concepts of hybridity and third space in its representation of the topic of identity? The research reached a set of conclusions, the most important of which was that collective memory continued to bear the wounds of colonialism and violence and contributed to the crystallization of individual identity. The representations of identity and memory in the novel "La Nuit des Origines" also revealed fractured identities that suffered from alienation and marginalization in exile.

Keywords: Identity; Memory; Hybridity; Representations; Algerian Novel; La Nuit des Origines.



المقدمة:

تعد قضايا الهوية والذاكرة من أكثر القضايا اهتمامًا في الدراسات الفكرية والأدبية المعاصرة، فقد قاربتها الدراسات الفلسفية والاجتماعية والأدبية، خاصة بعد الأحداث السياسية التي شهدتها العالم خلال القرن العشرين من حروب عالمية وصراعات والتي أثرت بدورها في الثقافة والفكر والأدب عامة، وفي أدب ما بعد الكولونيالية خاصة؛ هذا الأخير الذي ركز اهتماماته على دراسة هوية وثقافات الشعوب المستعمرة، وطرح أصحابه سؤال الهوية وجراحات الذاكرة ومعاناة المنفى والشتات، كما كان لدراسات الذاكرة نصيب من الاهتمام تجلى في ما يعرف بحقل دراسات الذاكرة **Memory Studies**، وهو حقل دراسي ذو طبيعة "بينتخصصية" يقوم على التعامل مع الذاكرة الإنسانية في بعدها المجتمعي والجمعي، وقد ظهرت هذه الدراسات في الغرب في أواخر سبعينيات القرن العشرين¹.

وفي حقيقة الأمر، لا يمكن إنكار التعالقات الحاصلة بين الهوية والذاكرة فتمت قبول "بأن الذاكرة والهوية مرتبطتان ارتباطا لا ينفصم"² فالهوية تتركز في بلورة مفاهيمها على الذاكرة، وهذه الأخيرة تمنح الهوية عمقها وشرعيتها، فكلما تعرضت الذاكرة للتصدعات والجراحات بتأثير الاستعمار والحروب والهجرة القسرية ظهرت الهوية هشّة تعاني الاغتراب والتشظي.

وفي الجزائر أنتجت فترة الاستعمار الفرنسي ثم حرب التحرير وبعدها أحداث ما بعد الاستقلال ذاكرة جماعية متقلبة بجروح الماضي، انعكست جراحاتها على الهوية الفردية والجماعية وهو ما خلف نفسيات مأزومة مازالت تعيش تحت وطأة مخلفات الماضي، وقد حاول الأدب الجزائري مساءلة هذه التصدعات ورأب صدع الهوية الفردية والجماعية، وبرزت العديد من الروايات التي ناقشت موضوع الهوية والذاكرة، ومن بينها رواية "ليل الأصول" (La nuit des origines) للروائي الجزائري نور الدين سعدي الصادرة سنة 2005م عن دار (Aube) بباريس، وتندرج هذه الرواية ضمن ما يعرف بروايات الهوية والهجنة والبحث عن الذات أو الروايات ما بعد الاستعمارية، وهي الروايات التي تتناول موضوع الهوية وتناقش القضايا المتعلقة بها مثل الاعتزاز والصراع الحضاري، وتهتم باستكشاف تقاطع الهويات التي تتشكل من خلال مفهومي الهجنة والفضاء الثالث حسب تفسيرات هومي بابا.

تتمحور إشكالية البحث حول تصدعات الهوية واختلالات الذاكرة في رواية ليل الأصول لنور الدين سعدي، وتبحث عن الآليات التي اعتمدها سعدي في تمثيل هذه التصدعات، وتطرح جملة من التساؤلات هي: كيف عبرت رواية ليل الأصول عن تصدعات الهوية واختلالات الذاكرة؟ كيف مثلت هذه الرواية لتصدعات الهوية الجمعية من خلال صراعات البطلة عبلة؟ كيف أثرت الذاكرة المأزومة في خلق هويات هشة؟ ما هي الآليات التي استعان بها الروائي لتمثل هذه الانكسارات؟

ويهدف هذا البحث إلى الإجابة عن هذه التساؤلات المطروحة من خلال دراسة تصدعات الهوية واختلالات الذاكرة في رواية ليل الأصول لنور الدين سعدي، والكشف عن آليات الروائي في دراسة تمثيلات الهوية والذاكرة في روايته.

ومن أجل الإجابة عن الإشكالية المطروحة جاء البحث في مقدمة ومبحثان رئيسيان وخاتمة، اهتم المبحث الأول بالأطر النظرية لمفهوم الهوية والذاكرة، وسعى إلى الكشف عن المراحل التي تطور بها مفهوم الهوية، وكذلك إلى مقارنة مفهوم الذاكرة في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، ودرس المبحث الثاني تمثيلات الهوية والذاكرة في رواية ليل الأصول، وانتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج.

أولا- الهوية والذاكرة: الأطر النظرية:

1- الهوية:

يتحدد مفهوم الهوية لغة في كونها "مصدر صناعي من هو، [وهي] حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره، [والهوية] إحساس الفرد بنفسه وفرديته وحفاظه على تكامله وقيمه وسلوكياته وأفكاره في مختلف المواقف"³، أي أن مفهوم الهوية مرتبط بماهية الفرد، وبخصوصيته التي تميزه عن غيره، والهوية في موسوعة لالاند الفلسفية هي "ميزة فرد، أو كائن

يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه إنه متاه، أو إنه "هو ذاته" في مختلف فترات وجوده⁴، يقر لالاند أن الهوية مبدأ ثابت لا يتغير في مختلف فترات وجود الشخص.

ومفهوم الهوية من أكثر المفاهيم التي تشترك في مقاربتها حقول معرفية متنوعة، وهي متوالدة تتعرض للتغير وتتأثر بما يحيط بها من مستجدات العصر، ذلك أن الهوية "ليست كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتتمو، وتتكون وتتغير، وتشيع وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب"⁵، أي أن مفهوم الهوية ليس واحدا بل هو متعدد ومتحول، وهذا التعدد ناتج من مفهومها الذي تتجاذبه تخصصات وحقول مختلفة، كما أن للهوية وفقا لذلك أبعاد متعددة، وكل حقل يناقش هذا المفهوم انطلاقا من خصوصياته.

ويرى الناقد الجاميكي ستيوارت هال أن مفهوم الهوية تطور ومّر بثلاث مراحل⁶، وقد سبقت هذه المراحل بما يعرف بالمرحلة المبكرة للحداثة وارتبط مفهوم الهوية فيها بالهوية الفردية، حيث كان موقع الفرد في المجتمع هو من يحدد هويته بعيدا عن أي خصائص أو سمات فردية، وفيما كانت السيطرة التامة للنظرة الدينية حيث يتحدد موقع الفرد في المجتمع وهويته من الموقع الذي ولد فيه والذي هو قرار الإله وحده، وهذه المراحل هي:

أ- الهوية موضوع للتنوير:

ظهر مفهوم جديد للهوية وذلك بعد ظهور الحداثة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، وهذا المفهوم له خاصيتان رئيسيتان؛ أولاها أن كل فرد له هوية موحدة لا مجزأة، وثانيها أن لكل فرد هوية متميزة قائمة بذاتها، وقد نشأ هذا المفهوم الجديد للهوية مع أفكار الفيلسوف رينيه ديكارت والذي فصل بين الفكر والمادة، واعتبر أن الإنسان وفقا لذلك يتكون من عقل وجسم، ولكل إنسان عقل خاص به منفصل عن غيره، وهو بذلك متميز لا يشبه غيره وعبر عن هذا التميز في عقل الإنسان بالكوجيتو الشهير أنا أفكر إذا أنا موجود، وكان التنوير حسب هال يركز على مفهوم المركزية التامة للإنسان لما له من قدرة على الإدراك والتحليل والتطبيق⁷، أي أن الهوية في عصر التنوير تجسدت في الهوية الموحدة للفرد، فلكل فرد هوية خاصة به تختلف عن هوية غيره من أفراد المجتمع، وهي تتحدد بمدى قدرة الفرد على الشك والتحليل واعمال العقل وليس بما يميزه من خصائص جسدية أو اجتماعية، فالهوية عنده مرتبطة بالعقل (بعد روحي) وليس في الجسد (بعد مادي).

ب- الهوية موضوع لعلم الاجتماع:

خلال القرن التاسع عشر تطورت الدراسات والمفاهيم الخاصة بالهوية الفردية، ويؤكد هال أن هذا التطور كان كنتيجة لتطور المجتمع خاصة مع ظهور الثورة الصناعية، وتحولت الذهنية الاجتماعية مع ظهور المؤسسات والمصانع، ومع بداية القرن العشرين تطورت المؤسسات الفردية إلى شركات مساهمة يملكها الكثير من الشركاء، فتحول المواطن الفرد إلى جزء صغير من الكل، ولم يعد متميزا أو منفصلا عن الكل، وتدخلت المعتقدات الجماعية في العلاقات بين الأفراد

والمجتمع، وأصبحت هوية الفرد تتحدد ضمن الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها وأصبحت هويته تحدد إما بمهنته أو بأصوله وقوميته، أو بدينه، وتحولت الهوية إلى جسر بين الفرد الخالص والفرد الاجتماعي⁸، ووفقا لذلك تطور مفهوم الهوية عند علماء الاجتماع ولم تعد ثابتة وخاصة بفرد ما من المجتمع بل أصبحت نتاج التفاعل الحاصل بين الفرد والمجتمع الذي ينتمي إليه، فهوية كل فرد تتحقق ضمن الجماعة التي ينتمي إليها.

ج- الهوية موضوع لما بعد الحداثة:

يرى هال أن العولمة ساهمت في ظهور ما يعرف بالهويات الجزئية، فالتطور السريع الذي طال العالم بعد تطور وسائل النقل والتواصل أثر على الناس ولم تعد هوياتهم نتاج المكان الذي ولدوا فيه بل أصبح بإمكانهم الاختيار بين مجموعة متنوعة من الهويات التي تمر أمامهم، وأصبح لهم حرية اختيار طريقة اللباس أو الأكل أو التحدث أو أساليب الحياة الخاصة بالجماعات الأخرى، فقد أدت العولمة إلى إضعاف الهويات الخاصة⁹، وأصبحت الهويات مفتتة، تتألف من هويات متعددة لا هوية واحدة موحدة، وهي في الغالب هويات متناقضة، واتخذت الذات هويات متعددة باختلاف الأزمنة وأصبحت متحولة على الدوام، ما يجعل الإنسان محاطا بهويات ممكنة وهاربة وباعثة عن الحيرة¹⁰، نلاحظ تطور مفهوم الهوية في عصر ما بعد الحداثة، بعد أن ارتبطت في عصر الحداثة بالعقل وبالانتماء الاجتماعي، تعدد مفهومه خاصة بعد ظهور العولمة التي جعلت العالم قرية صغيرة، وأصبحت الهوية هويات متعددة ومتشظية، ومتحولة على الدوام. ودرس هال التأثيرات التي أحدثتها العولمة على الهوية، وأكد أن هناك اختلاف في تلقي العولمة من قبل المجتمعات القومية، وتمثل في:

- فئة حافظت على هويتها القومية واعتبرتها وسيلة دفاع من التهديدات التي ستطالها من قبل المهاجرين ومثل لذلك بما حدث في بريطانيا.

- أقليات وجاليات حاولت المحافظة على تميزها وهويتها بين الإثنيات الكبرى، فعزلت نفسها للحفاظ على خصوصياتها، ومثل لذلك بما فعلته شعوب الكاريبي والهند والبنغلاديش وباكستان في بريطانيا، حيث شكلت أقليات قوية وحافظت على طريقة لباسها ونمط عيشها للتأكيد على تميزها عن المجتمع البريطاني.

- أقليات اختارت تشكيل هويات جديدة في بريطانيا مثل هوية السود وضمت البريطانيون من أصل إفريقي وكاريبي وآسيوي، وهوية السود البريطانيون جاءت كاستجابة للتمييز والإبعاد¹¹، أي أن تلقي العولمة في المجتمعات الحديثة أثر بشكل مباشر على الهوية، ففي حين اختارت بعضها التكتل والحفاظ على هويتها الجمعية، حاولت الأخرى الاندماج في مجموعات تؤكد تميزها، وتحافظ على وجودها ضمن النسيج الكلي.

ووضع اليكس ميكشيلي مجموعة من المعايير التي تساعد على تحديد هوية جماعة أو فرد مقارنة بجماعة أو فرد آخر، وصنفها إلى أربعة عناصر¹²؛ أولها عناصر مادية وفيزيائية وتشمل الممتلكات مثل الاسم والأموال والسكن

والملايس، والقدرات العقلية والمالية، والتنظيمات المادية والانتماء الاجتماعي، وثانيها عناصر تاريخية وتتضمن الأصول التاريخية والاحداث التاريخية الهامة ولتنشئة الاجتماعية والآثار التاريخية مثل العقائد والعادات والتقاليد، وثالثها عناصر ثقافية نفسية مثل النظام الثقافي ويشمل المنطلقات الثقافية والعقائد والأديان والرموز الثقافية والايديولوجيا ونظام القيم الثقافية وأشكال التعبير المختلفة، وتشمل كذلك العناصر العقلية مثل النظرة إلى العالم ونقاط التقاطع الثقافية والمعايير الجمعية والعادات الاجتماعية، ورابعها العناصر النفسية الاجتماعية، وتشمل الأسس الاجتماعية مثل الاسم والمركز الاجتماعي والعمر والجنس والمهنة والسلطة والواجبات والانتماءات الاجتماعية عامة، كما تشمل القيم الاجتماعية والقدرات الخاصة بالمستقبل مثل الكفاءة والنوعية والقدرة وفط السلوك.

2- الذاكرة:

هي "صيغة المؤنث لفعل (ذكر)، قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب، والمعلومات السابقة في الذهن واستعادتها، [يقال] لديه ذاكرة حادة- بقي في ذاكرة الناس، إن لم تخفي الذاكرة: إذا لم أَسْ-خلل في الذاكرة/ قصور في الذاكرة: ضعف ونقص فيها- ذاكرة بصرية: قوة عقلية"¹³، فالذاكرة في اللغة تعني الحفظ والتذكر والاسترجاع.

ومفهوم الذاكرة من أكثر المفاهيم التي نالت نصيبا كبيرا من الدراسة والنقد، فقد اهتم بتحديددها فلاسفة اليونان قديما وتجسدت في أفكار أفلاطون وأرسطو وأوغسطين، وقد تعامل هؤلاء الفلاسفة مع الذاكرة البشرية في صيغتها الفردية؛ ففي حين ربط أفلاطون بين الذاكرة والمعرفة، وأكد أن معرفة الإنسان ما هي إلا تذكر واسترجاع لما تعلمه في عالم المثل، ربط أرسطو بين الذاكرة والانفعالات، وأكد أن عملية التذكر تحدث عبر تداعي الأحاسيس والأفكار، أما جمود أوغسطين فقد تجسدت في تمييزه بين الذاكرة الحسية والفكرية، حيث ربط الذاكرة الحسية بالمحسوسات والذاكرة الفكرية في العلوم والمعارف¹⁴، ربط كل من أفلاطون وأرسطو وأوغسطين الذاكرة بالفرد، واعتبر أفلاطون أن المعرفة فطرية وركز على فكرة أن الذاكرة هي عملية استرجاع للمعارف الموجودة في عالم المثل قبل الولادة، أما أرسطو فقد ركز على الوظيفة النفسية للذاكرة، وأكد أن عملية التذكر تتم عبر تتدفق الأحاسيس والتصورات الذهنية، أما أوغسطين فقد ميز بين الذاكرة الحسية والذاكرة الفكرية وأعطى لكل نوع منها حدوده المعرفية، وتجسد هذه الجهود تطور التصورات والأفكار حول الذاكرة، وهي الجهود التي تصب كلها في الاعتراف بأهمية الذاكرة ودورها في استرجاع المعارف والخبرات السابقة.

وقد تطورت الدراسات المعاصرة في مجال دراسات الذاكرة، خاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتجسدت في جهود مجموعة من النقاد الذين درسوا الذاكرة من مقاربات متعددة، وهي:

أ- موريس هالبواكس: الإطار الاجتماعي للذاكرة:

يعتبر الناقد الفرنسي موريس هالبواكس مؤسس علم اجتماع الذاكرة، وذلك بداية من عشرينيات القرن العشرين حيث كانت الدراسات قبل ذلك تنظر للذاكرة باعتبارها "عملية داخلية ترتبط بالفرد المتذكر وتنحصر فيه"¹⁵، وساهمت

أبحاث هالباكس في تطوير مفهوم الذاكرة وبصورة نظرية الذاكرة الجمعية والتي أكد من خلالها أن عملية التذكر الفردية لا يمكن لها أن تنشأ أو تكتمل إلا ضمن أطر اجتماعية محددة، وقد كانت الدراسات حول الذاكرة قبل ذلك تجعل الذاكرة عملية بيولوجية محضة، لكن هالباكس ربط بين الذكريات الشخصية للفرد وبين المجتمع الذي ينتمي إليه، حيث تسمح الأطر الاجتماعية بخلق ما يسمى بالنسق الجمعي والذي يجعل خبرات الفرد قابلة للتذكر والتفسير¹⁶، أي أن ذاكرة الفرد مرتبطة بالذاكرة الجمعية للجماعة التي ينتمي لها، ولا تتم عملية التذكر إلا ضمن أطر اجتماعية تحددها الجماعة.

وحسب هالباكس لم تعد الذكريات الفردية خاصة بالفرد ذاته، بل تقع ضمن نسيج عام داخلية المنظومة الاجتماعية، حيث يتيح له الحوار مع أفراد المجتمع الآخرين فرصة لتذكر تجارب ماضية في حياته، وتقوم نظريته على فكرة أن كل مجموعة اجتماعية ضمن المجتمع البشري لها تجارب مشتركة بين أفرادها يتم استعادتها عبر التذكر، مما ينتج عنه ذاكرة مشتركة بينهم تؤسس بدورها لتشكيل هويتها الجماعية¹⁷.

ب- جاك لوغوف: الذاكرة الإثنية والتاريخ:

ركز لوغوف في الفصل الثالث من كتابه "التاريخ والذاكرة" على الذاكرة الإثنية، وعلى الوظيفة التي تضطلع بها، كما ميز في كتابه بين "الثقافات الشفوية والثقافات الكتابية" في ما يتعلق بالمهات الموكولة إلى الذاكرة مؤسسة على كون العلاقات بين هذه الثقافات تتوسط تيارين مغلوطين في غلوها، يؤكد أحدهما أن البشر كلهم يمتلكون الإمكانيات نفسها، ويقدم التيار الثاني تمييزاً واضحاً بين الهم والنحن¹⁸، ركن لوغوف على الذاكرة التي تؤسسها الجماعات البشرية وكيف تربطها بهويتها، وحاول في كتابه التمييز بين الثقافات الشفوية والثقافات الكتابية، حيث تعتمد الثقافات الشفوية على النقل الشفوي في تداول التراث بين الأجيال، وفي هذه الحالة تنحصر وظيفة الذاكرة في الحفاظ على موروثات الجماعة، في حين تعتمد الثقافات الكتابية على التسجيل والتدوين، ما يجعلها أكثر حفاظاً على الهوية، أي أن مهمة الذاكرة ترتبط بالثقافة التي تستعملها.

ج- بيير نورا: الذاكرة والمكان:

اهتم مؤرخ الذاكرة الفرنسي بيير نورا في كتابه "أماكن الذاكرة" بدراسة العلاقة بين المكان والذاكرة، واعتبر أن بداية تشكل الذاكرة الفرنسية ترجع إلى بداية القرن التاسع عشر حيث تأسست الهوية القومية الفرنسية خلال عصر الجمهورية الفرنسية الثالثة، واعتبر نورا أن الأماكن التاريخية الفرنسية كقصر فرساي وبرج إيفل هي أماكن ذاكرة فرنسية، ووضع بيير نورا ثلاث أبعاد لأماكن الذاكرة، البعد المادي حيث تكون أماكن الذاكرة محسوسة قابلة للمس، والبعد الوظيفي حيث تمتلك وظيفة ضمن المنظومة الاجتماعية، والبعد الرمزي حين تتحول الممارسات الثقافية إلى طقوس محاطة بهالة رمزية¹⁹، فالأماكن المادية هي كل ملموس من قصور وتحف ونصب، والأماكن الوظيفية يكون لها دور في الحفاظ على التاريخ الوطني، والأماكن الرمزية هي الطقوس والشعائر وكل الممارسات الثقافية الرمزية.

د- يان أسمن: الذاكرة والحضارة:

ركز عالم المصريات الألماني يان أسمن على الذاكرة الحضارية، وحاول "إيراز البعد الحضاري للتذكر الجمعي بفحص العلاقة التأثيرية المتبادلة بين التذكر الجمعي، وبين الحضارة بوصفها نظاما بشريا رمزيا"²⁰، والذاكرة الحضارية عند أسمن "تصوب بصرها دائما تجاه النقط الثابتة في الماضي، غير أن الماضي لا يحتفظ بنفسه في هذه الذاكرة أيضا بالصورة نفسها التي وقع بها، فالماضي يتجمد هنا بالأحرى في شكل شخوص وأشكال رمزية تثبت فيها الذكرى وتلتصق بها"²¹، اعتبر أسمن الذاكرة الحضارية وسيلة للحفاظ على التاريخ الحضاري الذي تختاره أمة ما لتقديم نفسها، وركز على أهمية النصوص المقدسة في حفظ الذاكرة الحضارية ونقلها للأجيال.

ثانيا- تمثيلات الهوية والذاكرة في رواية "ليل الأصول":

تروي رواية "ليل الأصول" للروائي الجزائري نور الدين سعدي قصة امرأة جزائرية تدعي عبلة تضطربها ظروف العشرية السوداء في الجزائر إلى الهجرة إلى فرنسا، وكانت تحمل معها مخطوطا عائليا وتفكر في بيعه، وهو مخطوط جدها الأكبر سي لكبير بلحملاوي شيخ الطريقة الحملاوية.

وفي باريس تتقاطع طرقها مع آلان/ علي وهو فرنسي من أصل جزائري، ولد في قسنطينة من أم جزائرية تدعى عائشة وجندي فرنسي لكنه هاجر صغيرا، تلتقي به عبلة في سوق "سانت أوان" أين يمتلك محلا لبيع التحف الثمينة، تنطلق الرواية في جو غرائبي، وتدخلنا منذ الصفحة الأولى في اشتباكات الهوية والذاكرة، تدخل البطلة عبلة إلى محل التحف القديمة في سوق "سانت أوان"، تندهش البطلة الهاربة من ذاكرتها المأزومة في قسنطينة، وتفاجئ بوجود سرير أثري يشبه سريره في قسنطينة "لم تستطع أن تكتم صبيحتها: كان السرير يتصدر المكان متكئا على الحائط... وبقيت لحظات كأنها جامدة، يدها على فمها، وهي تتمتم: عذرا، طاب يومكما، بلى... هذا السرير كأنه سريري"²².

1- هويات متعددة/ هويات متصارعة:

تجري أحداث الرواية بين فضاءين متناقضين: قسنطينة حيث الأصل والهوية والذاكرة، وباريس حيث المنفى والاعتراب الروحي، ما يجعل رواية ليل الأصول "رواية مثقفة، إن صح التعبير- تغترف من ثقافتين كبيرتين، ولغتين، وفضائين، مختلفين اختلافا كبيرا، متوازيين حيناً، ومتداخلين حيناً آخر، ومتصادمين في بعض المرات"²³، وتندرج الرواية ضمن روايات الهجنة والفضاء الثالث وهي بذلك نموذج مميز لدراسة تمثيلات الهوية الهجنة في الرواية، ذلك أن "الهجنة، والتجاذب، والانشطار، والاختلاف الثقافي (لا التعددية الثقافية) تشق الهوية وتجعلها ضربا معقدا من التقاطع والتفاوض بين فضاءات مكانية وزمنية تاريخية ومواقع للذات متعددة"²⁴، أي أن الثقافات الجديدة تنصهر وتشكل من جديد في بوتقة الفضاء الثالث.

وتتجلى الهويات المتعددة في رغبة البطلة عبلة في الفرار من ماضيها في قسنطينة وتلاعها بحروف اسمها لتتحت اسما جديدا لا يحيل إلى أصولها الحقيقة "سوق التحف القديمة، وأنت أهلي، هذه المرأة البا"²⁵، وتتأرجح حياة عبلة في الغربة بين الاسمين، ما يعكس صراعا هوياتيا في نفسها، والشيء نفسه عاشه آلان/ علي الذي كان يبحث عما يربطه ببلد أمه وأصوله، وهي الأصول التي كانت تهرب منها عبلة بعد أن هاجرت البلاد بعد العشرية السوداء "إسمي آلان أو علي كما تشاءين..."²⁶.

ويعكس تعلق علي / آلان بعبلة/ ألبا رغبته في البحث عن أصوله في ذاكرتها المشخنة، فقد رأى فيها ما يذكره بأمة عائشة "البلد... البلد يا جاك، أتعلم أنها مثلي من قسنطينة؟"²⁷، وكلما تعلق علي بعبلة كانت تهرب منه لأنه كان يعيدها إلى هويتها التي كانت تحاول التنصل منها "بدا عليها كأنها انتقلت إلى سريرها الذهبي في أعلى وادي الرمال، محاولة أن تستمع لهديره، وأن تتخيل لقلقا يجثم على هلال مئذنة في أعلى الهاوية، لا، ينبغي علي أن لا أراه ثانية، أحس أنه سيأخذني إلى هناك، يقول حدثيني عن قسنطينة... ماذا يريد أن يفهم عن هذا الجسر المعلق كنصل فوق فراغ، عن هذه المدينة الملعونة، وعن هذه الصخرة القديمة المتعفنة بالطحلب الندي؟ لقد جئت لأهرب من ذلك الماضي، من أطيافه، ومن أشباحه، وها هو كل ذلك الماضي يلحق بي هنا"²⁸.

كانت عبلة تقاوم إغراءات علي الذي كان يرى فيها انعكاسا لوطنه الأم الذي لم يعرفه أبدا في حين كانت هي تتنصل من ذلك البلد ومن ذاكرته الجمعية "عليك أن تفهم أنني أخاف أن أسير في الطريق الغلط، لقد أعدتني إلى قسنطينة التي أردت الفرار منها"²⁹.

ورغم مقاومة عبلة وصراعاها مع ذاكرتها إلا أنها كانت تستشعر فرحا طفوليا كلما رأت السرير الأثري الشبيه بسريرها في قسنطينة، حيث كان السرير رمزا للهوية التي كانت تحاول الهروب منها "أريد أن آتي معك، لأنام على السرير المذهب... الصورة الفوتوغرافية وحدها هي التي كان في استطاعتها أن تلتقط ذلك التعبير الصباني المؤثر الذي ارتسم على وجهها الذاهل عندما دفع آلان الباب، وأسرع بها لتقف أمام السرير"³⁰.

وفي القسم الثالث من الرواية تتحول عبلة إلى ألبا وآلان إلى علي في لعبة تبادل وبحث عن الهوية الضائعة، فتبحث هي عن كل ما يقطع صلتها بأرض الأجداد والذاكرة، في حين تعلق بها هو لأنها تذكره بهويته التي كان يبحث عن معالمها "أن الجزائر لا جغرافية لها، ولا حدود إقليمية، وأنها تنتقل باستمرار تحت قدميها كجلد لم تتمكن أبدا من فرد ثناياها"³¹.

2- ذاكرة الأشياء والأماكن:

تنطلق الرواية من رغبة عبلة في بيع المخطوطة التي جاءت بها من الجزائر، حيث التقت في طريقها إلى ذلك بالسرير الأثري المذهب الذي يشبه سريرها الذي تركته خلفها في قسنطينة، كما التقت بالان/ علي الباحث على عكسها

عن أصوله في الجزائر، وتتقاطع رغباتها ويكون إحداها شفاء للآخر؛ يبحث آلان في ملامحها عن أمه التي انقطع عنها صغيرا، وتحقق هي في نقصه كل رغباتها الأمومية التي حرمت منها في قسنطينة.

وتعكس نية عبلة في بيع المخطوط رغبتها في التخلص من كل قيود الماضي والهوية، لكنها رغم ذلك لا تتمكن من التفريط به بسهولة، ويرافقها في رحلة الاغتراب والمنفى معلنا عن نفسه كرمز للهوية الثقافية التي تأبى النسيان والنوبان. أما علي فقد بحث في المخطوط الذي لا يفهم لغته عن رائحة الأجداد والأصول التي لم يعرفها "عندما ترك المخطوط عنده يفتحه كيفما اتفق، ليلاطف الورقة الحريية، ويطويها ببطء، ليتمتع بهسستها، ويلمس رقها بالإصبع، كأنه يفك رموزه، كما يفعل الضير حين يمرر إصبعه على الكتابة بالبريل، أو على الأصح في هذه الحالة، يمكننا القول إنه يكون يبحث عن جلده في جلد الرق"³².

وبقي علي يبحث في ثنايا المخطوط عن رائحة أمه التي لم يعرفها، وتحولت الأشياء إلى شخصيات صامتة تحمل ذاكرة الأصول "عيناه تتابعان الفيض المتعرج للسطور التي كانت تبدو كأنها تخرج من الذهب العتيق للحاشية المزخرفة، لتنتهي على الجانب الآخر من الصفحة. كان يبدو مبهورا، مرددا: أي لم تعلمني لغتها أبدا..أي..."³³.

ويعكس السرير الأثري المذهب الذي تفاجأت البطلة بشبيهه في محل التحف القديمة صورة عن الماضي الذي ضل يطارد الحاضر "لقد قررت أن أفر من الجزائر، من قسنطينة بعد أن وقعت لي أحداث شخصية، لنختم وهي تسوي ستارتي النافذة بقولها: ها هي ذي بعض تفاصيل حياتي تلحق بي، إنه لشأن غريب وجود ذلك السرير هناك، ولماذا دخلت إلى ذلك المحل"³⁴، ويرمز السرير إلى دورة حياة الإنسان، وهو انعكاس لهوية البطلة التي ضلت تهرب منها كثيرا في شوارع باريس، وتفاجأت بها معلنة عن نفسها بين نقوشه وتفصيلاته، ورؤيته جعلت البطلة تسترجع كل ما حاولت نسيانه في قسنطينة من القيود الأسرية وحلم الأمومة المجهض.

3- الذاكرة الفردية / الذاكرة الجماعية:

تظهر الذاكرة الفردية في طفولة عبلة وشبابها في قسنطينة، حيث صنعت ذكريات لا تنتهي في هذه المدينة "وشيتا فشيئا راحت تسترجع، عبر أحد دهاليز ذاكرتها، صورة هاربة، هي وجه سيدي لكبير، الذي لم يتمكن أبدا أي رسام من أن يحدد ملامحه، ذلك الوجه الذي كانت تتصوره وهي طفلة، ولم تستطع أبدا أن تفهم لماذا يظهر لها من خلال العينين الحضراوين لصورة أمها المعلقة على الحائط"³⁵، فذاكرتها الفردية مرتبطة بقسنطينة وبسريها الذهبي، ما جعلها في صراع بين رغبتها في تبني هوية جديدة في باريس وبين الذاكرة الفردية التي تشدها إلى قسنطينة والتي ازدادت ضراوة بعد عثورها على توأم سريها في سوق سانت أوآن.

وتتجسد الذاكرة الجماعية في المخطوط المخملي المطرز بخيوط الذهب، حيث يلتحم فيها موروث الأجداد وذاكرتهم الجمعية "هذا المخطوط هو تركة، وقد أفنت فيها سلسلة معقدة من الخلف عيونهم، يحفظون ويرددون أورادها مثل نساك

يستظهرون أساء الله إلى حد السقوط مغشيا عليهم، مثل الطفل يردد اسمه لكي لا ينساه أبدا³⁶، وقالت "كنت أود أن أقول لكم ببساطة إن هذا المخطوط ليس هو شيئا فقط... ومدت يدها إلى الكوب الذي ملأه جاك لها، ثم واصلت بصوت مختنق، لا يكاد يسمع إلا قليلا: لقد نَجُن في طينة أرضي التي ولدت فيها، ولعلني أريد أن أتخلص من هذا، أن أحرر منه... من وطن، من أمثولة..."³⁷.

كانت المخطوطة تحمل تراث الأجداد الذي بقي يلاحق عبلة/ ألبا في رحلة المنفى والاعتراب، وعاشت البطلة صراعات نفسية بسبب عزمها على بيعه وقطع الصلة بموروث الأجداد، وعدم قدرتها على تنفيذ ذلك، وانتهت رحلتها مع المخطوط بصدمة أوصلتها إلى المصححة النفسية ثم الانتحار "وحينئذ، وفي ثورة عارمة حلت شعرها، وصرخت، وفرت هاربة وهي تحمل مخطوطها، وبقي الكيس المخملي الأسود مثل عشب فارغ أمام أعينهم المندهشة"³⁸، وانتهت حياة عبلة بعد نوبة كراز تعرضت لها أثناء لقاء عمل لبيع مخطوطها إلى طراكيان، حيث انهارت نفسيا ثم وضعت حدا لحياتها لتعود إلى أرض الوطن مع مخطوطها، ما يعكس فشلها في التنصل من ذاكرتها الجمعية والتي بقيت تلاحقها حتى مماتها ودفنها في أرض الوطن.

الخاتمة: ونخلص مما تقدم إلى مجموعة من النتائج نجملها في:

- كشفت تمثيلات الهوية والذاكرة في رواية ليل الأصول عن هويات متصدعة تعاني الاعتراب والتهميش في المنفى.
- ظهرت الهوية في الرواية متصدعة تعاني صراعات داخلية.
- الذاكرة الفردية والجماعية لم تكن مجرد استرجاع للماضي بقدر ما ترجمت صراعا هوياتيا عانى منه أبطال الرواية.
- كشفت الرواية عن قوة الذاكرة الجمعية والتي بقيت تشد البطلة إلى أصلها وتذكرها في كل مرة بهويتها الأصلية.
- طرحت الرواية قضايا الاعتراب الوجودي والقلق الهوياتي في مجتمع غربي.
- كشف موت البطلة بعد فشلها في بيع المخطوط عن استحالة التنصل من الذاكرة الجماعية.
- كشفت الرواية عن استحالة ذوبان الذات العربية مع الآخر الغربي، حيث ينتهي صراع البطلة بالانهيار النفسي بعد أن عاشت معاناة وجودية حادة.

هوامش:

- ¹ - زهير سوكاح، (2020)، حقل "دراسات الذاكرة" في العلوم الإنسانية والاجتماعية: حضور غربي وقصور عربي، مجلة أسطور، تصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعهد البوكة للدراسات العليا، المجلد 6، العدد 11، ص 34.
- ² - جويل كانسو، 2009، الذاكرة والهوية، ترجمة وجيه أسعد، دمشق - منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ص 5.
- ³ - أحمد مختار عمر، 2008، معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة هو، الطبعة 1، القاهرة-عالم الكتب، ص 2382.

- 4 - أندريه لالاند، 2001، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، الطبعة 2، بيروت/باريس- منشورات عويدات، ص 607.
- 5 - اليكس ميكشيلي، 1993، الهوية، ترجمة علي وطفة، الطبعة 1، دمشق- دار الوسيم للخدمات الطباعية، ص 7.
- 6 - ينظر: حاتم حميد محسن، (2019)، طبيعة الهوية الاجتماعية في ضوء النظريات السوسيولوجية، تاريخ الاطلاع 2025/09/01، https://www.arabnationleague.com/a_web/one_sub.php?id=962
- 7 - الموقع نفسه.
- 8 - نفسه.
- 9 - نفسه.
- 10 - مروة مختار، (2019)، ستبورات هول وتشكل الهوية الثقافية، مجلة الفيصل، الرياض، العدد 511-512، ص 85.
- 11 - هارلمس وهولبورن، 2010، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، الطبعة 1، دمشق- دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، ص 99.
- 12 - ينظر: اليكس ميكشيلي، الهوية، ص ص 18-20.
- 13 - أحمد مختار عمر، 2008، معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة ذكر، ص 815.
- 14 - زهير سوکاح، (2020)، حقل "دراسات الذاكرة" في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص 35.
- 15 - زهير سوکاح، (2020)، مراجعة كتاب الذاكرة الجمعية موريس هالباكس، مجلة تبين، المجلد 9، العدد 33، ص 176.
- 16 - زهير سوکاح، 2006، مفهوم الذاكرة الجمعية عند موريس هالباكس، الحوار المتمدن، تاريخ الاطلاع 2025/09/02، <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=82628>
- 17 - الموقع نفسه.
- 18 - كتاب العربي، 2018، جاك لوغوف.. في مفارقات "الذاكرة والتاريخ"، العربي الجديد، تاريخ الاطلاع 2025/09/02، <https://www.alaraby.co.uk>
- 19 - عواطف علي خريسان، (2019)، السلطة والهوية وتشكيل الذاكرة الجمعية، مجلة الإناسة وعلوم المجتمع، العدد 6، ص 121.
- 20 - زهير سوکاح، (2020)، حقل "دراسات الذاكرة" في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص 38.
- 21 - يان أسمن، 2003، الذاكرة الحضارية الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى، ترجمة عبد الحليم عبد الغني رجب، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ص 90.
- 22 - نور الدين سعدي، 2007، ليل الأصول، ترجمة أحمد منور، الجزائر، دار البرزخ، ص 7.
- 23 - أحمد منور، (2009)، تجربتي في ترجمة رواية "ليل الأصول" لنور الدين سعدي، مجلة معالم، المجلس الأعلى للغة العربية الجزائر، المجلد 1، العدد 1، ص 117.
- 24 - هومي ك. بابا، 2004، موقع الثقافة، ترجمة ثائر أديب، الطبعة 1، القاهرة- المجلس الأعلى للثقافة، ص 12.
- 25 - نور الدين سعدي، 2007، ليل الأصول، ص 54.
- 26 - المصدر نفسه، ص 13.
- 27 - نفسه، ص 30.
- 28 - نفسه، ص 46.
- 29 - نفسه، ص 78.
- 30 - نفسه، ص 79.

31 - نفسه، ص 106.

32 - نفسه ص 135.

33 - نفسه، ص 112.

34 - نفسه، ص 22.

35 - نفسه، ص 175.

36 - نفسه، ص 188.

37 - نفسه ص 189.

38 - نفسه، ص 192.

قائمة المراجع:

الكتب:

- 1- أحمد مختار عمر، 2008، معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة هو، الطبعة 1، القاهرة-عالم الكتب.
- 2- أندريه لالاند، 2001، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، الطبعة 2، بيروت/باريس- منشورات عويدات.
- 3- جويل كاندو، 2009، الذاكرة والهوية، ترجمة وجيه أسعد، دمشق- منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب.
- 4- نور الدين سعدي، 2007، ليل الأصول، ترجمة أحمد منور، الجزائر، دار البرزخ.
- 5- هارلبس وهولبورن، 2010، سوشولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، الطبعة 1، دمشق- دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع.
- 6- هومي ك. بابا، 2004، موقع الثقافة، ترجمة ثائر أديب، الطبعة 1، القاهرة- المجلس الأعلى للثقافة.
- 7- يان أسمن، 2003، الذاكرة الحضارية الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى، ترجمة عبد الحليم عبد الغني رجب، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.
- 8- اليكس ميكشيلي، 1993، الهوية، ترجمة علي وطفة، الطبعة 1، دمشق- دار الوسيم للخدمات الطباعة.

المقالات:

- 9- أحمد منور، (2009)، تجرّتي في ترجمة رواية "ليل الأصول" لنور الدين سعدي، مجلة معالم، المجلس الأعلى للغة العربية الجزائر، المجلد 1، العدد 1، الصفحات 116-123.
- 10- زهير سوكاح، (2020)، حقل "دراسات الذاكرة" في العلوم الإنسانية والاجتماعية: حضور غربي وقصور عربي، مجلة أسطور، تصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ومعهد الدوحة للدراسات العليا، المجلد 6، العدد 11، الصفحات 33-58.
- 11- زهير سوكاح، (2020)، مراجعة كتاب الذاكرة الجمعية موريس هالباكس، مجلة تبين، المجلد 9، العدد 33، الصفحات 175-180.
- 12- عواطف علي خريسان، (2019)، السلطة والهوية وتشكيل الذاكرة الجمعية، مجلة الإناسة وعلوم المجتمع، العدد 6، الصفحات 107-126.
- 13- مروة مختار، (2019)، ستيورات هول وتشكل الهوية الثقافية، مجلة الفيصل، الرياض، العدد 511-512، الصفحات 84-85.

المواقع الإلكترونية:

- 14- زهير سوكاح، 2006، مفهوم الذاكرة الجمعية عند موريس هالبواكس، الحوار المتمدن، تاريخ الاطلاع 2025/09/02، <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=82628>
- 15- كتاب العربي، 2018، جاك لوغوف.. في مفارقات "الذاكرة والتاريخ"، العربي الجديد، تاريخ الاطلاع 2025/09/02، <https://www.alaraby.co.uk>
- 16- ينظر: حاتم حميد محسن، (2019)، طبيعة الهوية الاجتماعية في ضوء النظريات السوسيولوجية، تاريخ الاطلاع 2025/09/01، https://www.arabnationleague.com/a_web/one_sub.php?id=962